ذكَرًا وأنثى خَلَقَهُم، في تكاملٍ متبادَل

بقلم المتروبوليت سابا (أسبر)

لطالما ذُكر في الأدبيات الشعبية المسيحية والدنيوية أنّ المسيحية ديانة أنثوية، بدليل تفوق عدد الإناث على عدد الذكور في اجتماعات العبادة الأرثوذكسية. هذا ليس صحيحاً في كلّ مكان. ثمّة من يتهم الأرثوذكسية بالذكورية لمجرد ملاحظة تزايد عدد الذكور الشباب الملتحقين بها جديداً. مع العلم أن هذه الظاهرة لا تصحّ على جميع الرعايا، وتالياً فهي معلومة غير دقيقة.

تستند المقولتان إلى واقع محلي يختلف من بلد إلى آخر، ومن ظرف تاريخي إلى آخر. ففي البلدان التي حكمتها الأنظمة الشمولية (الشيوعية) كان حضور الكبار في السن هو الطاغي في الكنائس المتبقية مفتوحة، فهل يكفي الاستناد إلى هذه الظاهرة للقول بأن المسيحية ديانة العجائز؟

المُلاحَظ رعويًّا من قبل الكهنة، أقلّه في أبرشيّتنا، أنّ الإقبال على المسيحية الأرثوذكسية لا يقتصر على الشبيبة الذكور كما روَّجت بعض التقارير الصحافية، ولا يصحّ اختزال هذه الظاهرة بوصفها "ذكورية." فالواقع الرعوي اليوم يُظهر بوضوح أنّ العائلات — وليس الأفراد وحدهم — تُقبِل إلى الإيمان بوتيرة تُعادِل على الأقل إقبال الرجال العزّاب إن لم تفقه. وتضمّ هذه العائلات آباءً وأمهاتٍ وأطفالًا من مختلف الأعمار، يجدون جميعًا في الأرثوذكسية بيئة روحية عميقة، ونظامًا حياتيًا متكاملًا، وطمأنينة يرغبون في تقديمها لأولادهم.

كما يُلاحَظ في هذه العائلات وعيٌ ناضجٌ لتكامُل الأدوار بين الرجل والمرأة، لا صراعٌ بينها ولا تنافس. فهناك رجالٌ يحبّون زوجاتهم حتى حدود التفاني، ويتعاونون معهم في إدارة شؤون الحياة العائلية والمادية والروحية والاجتماعية بفرح وامتنان. وفي المقابل، تجد النساء في الكنيسة الأرثوذكسية المكان الذي تُحقّق فيه أنوثتها الروحية والإنسانية بسلام، لأنها تُعامَل بمحبة واحترام وتقدير، ولأن الرجل يُطالَب بأن يحبّ امرأته "كما أحبّ المسيح الكنيسة وضحّى بنفسه من أجلها" (أف ٥:٢٥).

وإذا بدا أن بعض الشبان يجدون في الكنيسة اليوم مجالًا لتحقيق رجولتهم الأصيلة، فإنّ النسـاء أيضًـا يجدن فيها مجالًا لتحقيق أنوثتهن الأصـيلة. فالكنيسـة لا تنظر إلى الرجل والمرأة بمنطق الغلبة أو السـيطرة، بل بمنطق التكامل: "لا ذَكَرٌ ولا أُنثى، لأنكم جميعًا واحدٌ في المسيح يسوع" (غلاطية ٣: ٢٨) لذلك، فإنّ تفسير الظاهرة على أساس ذكوري أو نسـوي فقط يفتقر إلى الدقة، ولا يعكس الواقع الرعوي كما نعيشـه نحن في الخدمة. ولهذا كلّه، فإنّ الحاجة ماسّـة إلى دراسـة هذه الظاهرة بعمق اختصـاصي، بدل الاكتفاء بانطباعات صحافية سطحية.

إن تعليم الكنيسة الأرثوذكسي المستند إلى الكتاب المقدس القائل: "تعرفون أن المسيح رأس الرجل، والرجل رأس المرأة، والله رأس المسـيح" (١كو٣: ١١)، و "لأن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة" (أف ٥:٢٣). لطالما استند (التعليم الأرثوذكسي) إلى فهم النص بكليته لا باجتزاء جمل منه. فالنص نفسـه يتابع ليقول "أيها الرجال أحبوا نساءكم مثلما أحب المسيح الكنيسة وضحى بنفسه من أجلها... من أحب امرأته أحب نفسـه" (أف ٥:٢٥،٢٨). ولطالما تنّدر الأرثوذكس بتفسـير عبارة "الرجل رأس المرأة"، قائلين: بأن الرجل هو الرأس والمرأة هي رقبته التي تديره كيفما تشاء!

في الحقيقة يجد الكثير من الرجال والنساء المهتدين عيشة سلامية في حضن الكنيسة الأرثوذكسية، بسبب حفاظ التقليد الأرثوذكسي على كل من دور الرجل والمرأة، وتفسير أمين لهذه النصـوص. فتجد الرجل يتفانى في خدمة امرأته وأولاده شـاعراً بأن رجولته تفرض ذلك، محترم كونه رب البيت (الرأس)، وله مكانته كأب وزوج. بينما تجد المرأة اطمئناناً وسلاماً داخلياً كونها محبوبة ومحتَرَمة ومسنودة من قبل زوجها. هذا ما نلاحظه كرعاة في أبنائنا بعامّة.

فالشـبيبة الطالعة من رخاوة العيش، وعدم القدرة على مواجهة مشـاق الحياة، ترى في الكنيسـة الأرثوذكسـية امتلاءً روحياً، يختلف عمّا تراه في مجتمعها. لذا تراها تُقبل على الأصـوام الكثيرة، والصـلوات الطويلة، والسـجود والاعتراف وتطبيق وصـايا الإنجيل كما هي، دونما تفسير فذلكي إنسانوي لها. والأهم من ذلك كلّه أنهم، ذكوراً وإناثاً، يرون أبّوةً بات مجتمعهم يفتقدها، لا بل حتى أنّ بعض الإحصاءات تقول بعدم وجود الأب عند ما يزيد عن ٣٠٪ من الأولاد، وذلك من بعد ثمانينيات القرن الماضي.

ثمّة سـيكولوجية رجولية وأخرى أنثوية يغفلها كثيرون اليوم. فخبرتنا كرعاة تفيد بأنّ كلّ رجل يلتمس في زوجته حنان أمه التي يفتقدها، وكل امرأة تلتمس في زوجها طمأنينة الأب الذي تفتقده. ألا يرتاح الرجل إلى أن يضـع رأسـه في حضـن زوجته كي تعبث بشـعره، عندما يكون تعباً وقلقاً؟ والمرأة بدورها ألا ترتاح إلى أن تضـع رأسـها على صـدر زوجها وتعبث به عندما تكون متعبة وقلقة. أنا لسـت عالم نفس ولا طبيباً نفسـياً، بل راعي نفوس، وأخبركم بما اختبرته من الأزواج المختلفين، وممارسـتي لدوري كأب اعتراف لسنين طويلة.

ثمّة تكامل بين الرجل والمرأة تنادي به الكنيسـة الأرثوذكسـية. كما تؤمن بأن هذا التكامل يحتاج إلى حياة جهاد روحي ونسـكي بغية غلبة الأهواء التي تدفع الرجل إلى التسـيّد على المرأة، كما تدفع المرأة إلى تملق الرجل وخداعه اتقاء لشرّه. لا يأخذ الإنسـان حقوقه عندما يقلّد الآخر أو عندما يقمع شخصيته الذاتية، بل عندما يحقق ذاته وشخصيته. لا يحقق الرجل حريته إذا تسـلط على المرأة، ولا إذا تأنث، ولا إذا تنازل عن رجولته. ولا تحقق المرأة حريتها إذا صارت رجلاً آخر، ولا إذا تنازلت عن أنوثتها. من دون النضال في سبيل تنقية الذات وتطهيرها وسمّوها، بتعاون الرجل والمرأة، سيبقى العالم يشهد ظلماً هنا وخلطاً للأدوار هناك.

يجب ألا نفزع في ما إذا صـح القول أن أكثرية القادمين الجدد هم من الرجال، بالأحرى علينا أن نتذكر أن "الروح يهب حيث يشـاء" (يو٣: ٨). قد يرسـل نسـاء أكثر إلى رعية، ورجالا أكثر إلى رعية ثانية ومتقدمين في السـن إلى ثالثة. دورنا ككنيسـة أن نرحب بهم بحرارة، ونرعاهم بجد، لأنهم وثقوا بنا في أية رعية كانوا.

متى فهمنا هذا التكامل في النفوس السـاعية إلى الكمال روحياً، نفهم لماذا يُقبل الشـباب اليوم بالذات إلى الكنيسـة الأرثوذكسـية. حيث لا ذكورية ولا أنثوية في الأرثوذكسـية، بل سعي إلى تحقيق التكامل عبر تحقيق الذات بتنقيتها من أهوائها.

أتمنى أن يبادر بعض الإخصـائيين الاجتماعيين إلى دراسـة هذه الظاهرة باختصـاصـية وحرفية وتعمق. ستفيد دراساتهم الأجيال الحالية واللاحقة، كما الكنائس كلها.